خصائص الأمم والشعوب عند العلماء والحكماء وتعليقات (التوحيدي) عليها

أ.د.عبد الرزاق احمد وادي السامرائي
أ.م.د.علاء طه ياسين
جامعة تكريت/ كلية التربية سامراء

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد.((اعرف نفسك)) حكمة قديمة تنطوي على أبعاد بعضها سايكلوجية تخص النفس الإنسانية وما فطرت عليه من ميول واتجاهات ، والبعض الآخر ينطوي على جوانب ذات أبعاد اجتماعية تتعلق بالعلاقة المتبادلة بين الإنسان وبيئته .

إن لكل مجتمع أو كل (بيئة مجتمعية) أعراف وسلوكيات تراكمت عبر الزمن منها ما أصبحت أشبه بسنن أو قواعد (قوانين) اهتدت بهداها تلك المجتمعات ، وأخرى عفي عليها الزمن واستبدلها المجتمع تبعا لسنن التطور الكونية .

إن مسحا بسيطا لتأريخ الأمم يُظهر لنا صورة تكونت منها الأعراف والتقاليد سواء تلك المتعلقة بالتقاليد البيئية (الأرضية) ، أو تلك المرتبطة بالنواميس السماوية . (التوحيدي) عالم عربي مسلم كتب في شؤون المجتمع بشكل عام ، والمجتمع الإسلامي بشكل خاص ، وسلط التوحيدي الضوء في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) قضية اشتغل بها كثيرون قبله ألا وهي خصائص الأمم والشعوب (الفطرية) منها ، وكذلك الخصائص والتقاليد المكتسبة من البيئة . وانطلاقا من أهداف مؤتمر مركز صلاح الدين الأيوبي فقد ارتأينا ولوج هذا الموضوع للوقوف أمام فلسفة اجتماعية ذات نزعة إسلامية واضحة اصطبغ بها بحث التوحيدي . وقف البحث على الحوارات التي عرضها التوحيدي في كتابه وهي حوارات نقلها من كتب المتقدمين وأثنى على بعضها وعلّق على الاخرى. ولما كان موضوع بحثنا هو موضوع (قديم حديث) فلا شك انه لم يقتصر على كونه ظاهرة اجتماعية سايكولوجية عابرة ، إنما أصبح فعلا علميا كبيرا متنوع الزوايا والأهداف ، لا بل أصبح هناك أقسام علمية، وكليات، وجامعات تختص بجانب أو أكثر من جوانب هذه القضية فهناك (علم الاجتماع) ، وعلم الاكيلوجيا ، والاثنولوجيا وعلم التراث الشعبي ، والتاريخ والانثربولوجيا. إن القضية الاساسية

في بحث التوحيدي هي ما يعرف في مفاهيمنا المعاصرة (المفاضـــلة الاجتماعيـــة) Social differentiation ، وهو محور سؤال وجهه إليه احد الوزراء في الدولـــة الـــسامانية فـــي المشرق الإسلامي والواقع أن إجابة التوحيدي لم تكن مباشرة ، انمـــا ســـاقه الحـــديث إلـــى محاضرة (سايكلوجية - اجتماعية) وضّح من خلالها الخصائص الفطرية للإنسان من جهـــة ، وما هو مطلوب منه لبناء سلوكه الصحيح بما ينسجم وعقيدته الإسلامية خصوصا وهو يركز على المجتمع الإسلامي .

استعرض التوحيدي خصال أربع من الأمم هي : الغرب، والروم والفرس ، والعـــرب ، مانحاً كل امة صفة تتميز بها على الصفات الأخرى مؤكداً على أن الله سبحانه وتعالى أودع الإنسان (القدرة والعجز) وهما صفتان متضادتان ، قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَـــا سَـــوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَـــا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس: -) ، والعاقل من يميز الطيب من الخبيث .

فالتوحيدي يقف في ذلك كله موقف الفيلسوف من جانب ، والمصلح الاجتماعي مـــن جانب آخر ، وبالتالي فإن نظرته الفلسفية تنطلق من بعد جامع (Universa) الطبيعة الإنسان وأسراره فالسلوك التهذيبي مطلوب لتصحيح مفاسد الإنسان وشرور نفسه.

الحديث عن طبائع الشعوب وعاداتها يعني الخوض في مفاهيم ومصطلحات ضاربة بجذورها في عمق التاريخ ، على ان البعض منها يأتي بمسميات وألفاظ مختلفة عن الزمن البعيد .

ولاشك ان كل الأمم والشعوب تمتلك ألواناً من العادات يكاد قسم كبير منها يشترك مـــع أمـــم أخرى ، بينما اختصت أخرى بنمط من العادات دون غيرهـــا . مـــن هنـــا ولـــدت مفـــاهيم ومصطلحات مثل؛ الفلكلور، والانثروبولوجيا ، وعلـــم الاجتمـــاع ، والتـــراث ، والتـــاريخ ، والاثنولوجيا ، والاثنوكرافيا ، والاكيولوجيا . وكلها ذات علاقة وثيقة بعـــضها مـــع الـــبعض الآخر ( ). وإذا كان التوحيدي يتحدث عن خصائص كل أمة على حدة لا يمنح امتيازاً لأمـــة على أخرى ، فلكل أمة خصائصها وطبائعها التي فُطرت عليها . إننا نفهم من حديث التوحيدي انه يدخل في باب علم الاثنوغرافيا التي تعني الدراسة الوصفية للمجتمعات وحـــضاراتها( ).

ان المجتمع زمانا ومكانا بمثابة الأرض البكر التي ينبت فيها الجذر الإنساني ويعطـــي ثماره على مر الأيام . ومن النادر أن تتشكل رؤى الأفراد والجماعات خارج إطار المجتمـــع الذي يعيشون فيه ويتفاعلون مع خصائصه ومكوناته .

من هنا يتبين وجود قواعد وقيم واعراف ونشأة يتفق عليها الجميع ولا ينقطع عنهـــا إلا قلـــة نادرة . وعندما ينشأ المرء في بيئة معينة ، لابد ان يكتسب خبراتها وتعاليمها ويوشم ســـلوكه بسلوكها ( ). في الأدب العالمي طروحات وروايات ليست بالقليلة تحدثت ولازالت عن اثـــر

المجتمع وقيمته في نشأة أبنائه . في ((يوميات لص)) عكس مؤلف الكتاب الأسباب وراء ممارسة الشخص ؛ الشرور بأنواعه ؛ السرقة ، والجريمة ، والشذوذ ، والإدمان .. إنما هي في نظرة المجتمع المتدنية لطفل هذه الرواية الأدبية فقد عده المجتمع لقيطا لا يعرف نسبه ، وحتى ملجأ الايتام تقاطع معه .. وهكذا وجد الصبي نفسه مرغما لمثل هذا الواقع دون ارادة منه ( ) . والاثنوكرافيا وثيقة الصلة بالانثروبولوجيا والتي تعني دراسة ((علم الإنسان من حيث هو كائن طبيعي واجتماعي)) ( ) .

فالدراسات في الحقلين يبدأن معا ويسيران جنبا إلى جنب في الدراسة الوصفية لنظم وعناصر حضارة المجتمع البدائي ( ) . فالاثنوغرافي يسجل وصفياً ، والانثروبولوجي يحلل بعد الجمع والتسجيل( ). وعليه فعلم الاثنولوجيا هو أحد فروع الدراسة الانثروبولوجية . ولعل بحثنا يدخل ضمن الدراسة المذكورة .

ويميل بعض علماء الانثروبولوجيا إلى استخدام اصطلاح (اثنوكرافيا) كمرادف لمصطلح فلكلور Floklore الذي يستخدمه دارسو الثقافات الشعبية( ) .

وعلى العموم فان الفلكلور يعني مجموعة العقائد ، والعادات ، والمعتقدات الشعبية ، والامثال ، والحكايات ، والقصص ، والتقاليد عند شعب معين ، وفي تعريف آخر هو مورثات الماضي ورواسبه في المجتمعات المتحضرة لا البدائية ، وان وصل بين الفلكلور والمجتمعات البدائية سيخلط الفلكلور بالاثنولوجيا ، وهو ما لا يريده الفلكلوريون ( ).

ومع ذلك وبما ان علم الفلكلور قد نشأ ضمن الحاضنة الانثروبولوجية ، فإنه استمد هيكله الابستيمولوجي منها ، ليكون ، من ثم ، (علما وصفياً) معينا بضبط (مدونات) عن رواسب الماضي ومورثاته في المجتمعات الحديثة ، بما ان هذه الرواسب قد اصبحت بعيده عن متناول اليد ( ) . ولما قادنا الحديث إلى مفهومي الثقافة الشعبية والفلكلور وقد بيّنا معنى الفلكلور ، فإن معنى الثقافة الشعبية هو المظاهر الثقافية (الحاضرة) في هذه المجتمعات ، بما انها طريقة حياة وسلوك ، من فنون وطريقة اعلان ووسائل اعلام وحياة جنسية وأغانٍ ورقص وصحافة وسينما ورياضة ...... الخ والتي تشكل مفردات المظاهر الثقافية في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة ( ) .

ويبدو ان اقرب التعاريف إلى حقيقة الفلكلور Floklore هو تعريف الكسندر كراب،والذي يركز على دراسة التقاليد الشفاهية للشعب كما تبدو من خلال الروايات الشعبية والازياء والمعتقدات والسحر وممارسة الشعائر الدينية( ).

وبناء على ذلك ، فإن ما طرحه التوحيدي حول خصائص الامم والشعوب لعله يـــدخل فـــي جانب منه مفهوم الفلكلور .

ان السؤال الذي طرحه الوزير على التوحيدي لعله يدخل في باب ما يـــسمى فـــي مفاهيمنـــا الحديثة ((المفاضلة الاجتماعية)) (social differentiation) ( ) . والمفاضلة الاجتماعية في مفهومها العصري :- نشوء فوارق اجتماعية بين الافراد والجماعات بسبب تفاوت المنـــازل الاجتماعية ، او المهن التي يحتلونها ، او يزاولونها ، او بسبب صـــفات احيائيـــة وراثيـــة . تجعلهم يصنفون عنصرا ، او بسبب العمر او الجنس ( ) .

وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال في - الشرع الإسلامي - تمييز مسلم على آخـــر ، إنمـــا مقياس التفاضل هو التقوى لا غير . ان المفاضلة في المفهوم العصري وكذلك في المفهوم الإسلامي - ان حقوق الناس على قدر ما يقدمون من خدمة للمجتمع .

ان الذي قصده التوحيدي من حديثه عن طبائع الأمم هو ذلك الـــذي يتعلـــق بالجانـــب السلالي او الصفات الموروثة وقابليتها على التعامل مع البيئة فجاء في حديثه وهو يـــستعرض خصائص العرب ((ان العرب ليس لها اولٌ تؤمَه ولا كتاب يدلها ، أهل بلد قفر ، ووحشة من الأنس ، احتاج كل واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعقله،وعلموا ان معاشهم من نبات الارض فوسموا كل شئ بسمته ، ونسبوه إلى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه وأوقاته وأزمنته وما يصلح منه في الشاه والبعير ، ثم نظروا إلى الزمان واختلافـــه فجعلـــوه ربيعيا وصيفيا ، وقيظيا وشتويا ، ثم علموا ان شربهم من السماء فوضعوا لـــذلك الانـــواء وعرفوا تغير الزمان فجعلوا له منازله من السنة واحتاجوا إلى الانتشار في الارض ، فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الأرض وأقطارها ، فسلكوا بها البلاد( ) .

وفي ذلك ، فان للبعد المكاني والزماني أثر في أن يتكيف الإنسان بل يكيف نفسه مـــن خلال استثماره هذين البعدين لخدمته . ومعلوم أن الوسط البيئي له تأثير واضح فـــي تـــشكيل وتكوين الطبيعة النفسية والاجتماعية للانسان . ((ان عملية تفاعل الإنسان مع الطبيعة مـــن العمل امر متواصل)) ( ) . لقد تحدث ابن خلدون مؤسس علم العمران (الاجتماع) فـــي مقدمته ذائعة الصيت عن اثر البيئة في الوان البشر وأحوالهم وأخلاقهم وأبدانهم( ) .

وبعد ان استعرض ابن خلدون الموضوع في اكثر من عنوان ، قاده ذلك إلـــى القـــول ((ان النفس إذا أَلِفت شيئا صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون ، فإذا حصل لها اعتياد الجـــوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها))( ) .

يريد ابن خلدون ان يقول كما قال شاعرنا العربي :

والنفس راغبة إذا رغبتها وان ترد إلى قليل تقنعُ

وبمعنى آخر ؛ فان ترويض النفس على شيء من شأنه ان يصبح عادة جديدة . وفي هذا يؤيد ابن خلدون الرأي القائل بأن النفس وما تحمله من طبائع فطرية فإنها قابلة للتهذيب والتشذيب ان الله جل في علاه ، خلق الإنسان وأمده بنعم لا تحصى ومنها نعمة السمع والبصر ، وفوقها العقل . والعقل معيار تلمس طريق الخير او الشر ، لذلك قال علماء النفس والاجتماع ((ان الإنسان حيوان ناطق)) . فالإنسان يلتقي مع الحيوان بخصائص كثيرة لكن ما يميزه هو ((العقل)) الذي أورعه الله فيه ، قال تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ) (الملك:) .

وقال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الزمر: من الآية).وقال تعالى وهو يقسم بالفجر (وَالْفَجْرِ *وَلَيَالٍ عَشْرٍ*........ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) (الفجر: -) . والحجر هنا : العقل . وللجاحظ (ت هـ) كلام جميل في طبائع الشعوب وخصائصها ضمنّها في ((رسائله)) وعلى وجه الخصوص الرسالة الموسومة ((رسالة المعاش والمعاد او الاخلاق المحمودة والمذمومة)) التي وجهها إلى ابي الوليد محمد بن احمد بن ابي دؤاد ، فقال في مستهلها ((فرأيت ان اجمع لك كتابا من الادب ، جامعا لعلم كثير من العاد والمعاش ، أصف لك فيه علل الأشياء ، وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الأمم)) ( ).

وأضاف ((وقد اجمعت الحكماء ان العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب ومثلوا ذلك بالنار والحطب ، والمصباح والدهن وذلك ان العقل الغريزي آله والمكتسب مادة ، وإنما الادب عقلُ غيرك تزيده في عقلك)) ( ).

ان استهلال الجاحظ لرسالة المعاش قادته إلى التصريح وهو يخاطب أبا الوليد ((فألفت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصف لك فيه الطبائع التي رُكب عليها الخلق ، وفُطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون ، وإلى وجودها في انفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولّد عنها متفقون)) ( ).

ثم عرَّج الجاحظ إلى إيضاح الفرق بين الطبع (الاول) وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعا (ثانيا) مبينا بعد ذلك اسباب نوازع القلوب (الشهوات) نحو الاشياء ، فبعضها يمتنع عن الاشياء المرفوضة اجتماعيا ، وبعضها لا يمتنع وكيف تتحول الطبائع المذمومة إلى الشيم المحمودة ( ).

إن فكرا معتزلياً كالجاحظ ، وقد درس كتب المتقدمين ، يلتقي التوحيدي في ما ذهب إليه من ان الطبائع (الفطرة) بالإمكان إصلاحها . والجاحظ أوضح ذلك بصورة جلية فقال ((ان العقل الغريزي آلة ، والمكتسب مادة ، وإنما الأدب عقل غيرك تزيده في عقلك))( ). ويسترسل في الايضاح فيقول ((وأعلم ان الآداب إنما هي آلات تصلح ان تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا،وإنما وضعت الآداب على اصول الطبائع))( ).

وفي موضع آخر من رسائله تحدث الجاحظ عن ((براءة الامم)) فذكر مهارة كل امة من الامم وتميزها فيه مثلما أورد ذلك التوحيدي .. فتحدث الجاحظ عن الصين في الصناعة ، واليونانيين في الحكم والآداب ، وآل ساسان في المُلك ، والأتراك في الحروب ، والعرب فيما نحن ذاكروه في موضعه . ( ) إلا ان الجاحظ لم يذكر عن العرب شيء في رسائله ، ولربما ذكر ذلك في مُؤلَفْ آخر من مؤلفاته .

ان ما يثيره التوحيدي من اسئلة في معظم كتبه وخصوصا في ((الإمتاع والمؤانسة)) يدخل ضمن باب (الفطرة) من جانب ، والإصلاح الاجتماعي (تهذيب السلوك) من جانب آخر . وبمعنى آخر ؛ ((الخَلْقْ)) و ((الخُلُق)) . والتوحيدي وان كان يرى عدم امكانية تغير الاخلاق ، إلا انه لا يعارض الدعوة إلى اصلاح الخُلق وتهذيب النفس( ) .

ويرى التوحيدي ان الإنسان نصفان نصف خَلقْ ، ونصف خُلُق فإذا صلح نصفاه كمل ما هو به انسان ( ) . وفي هذا يقترب من قول الشاعر العربي: (ديوان طرفة بن العبد)

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

((فالمرأ بأصغريه بقلبه ولسانه)).

ويستمد التوحيدي كثيرا من آرائه تجاه خصائص الإنسان وفطرته التي فطر الله الناس عليها من نصوص القرآن الكريم قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً) (النساء: من الآية) . فالنفس الإنسانية واحدة التكون والخصائص والمظاهر فالإنسان يعتريه النقصان ! فالكمال لله وحده . تظهر فلسفة التوحيدي في تعليل هذه المسألة بالقول ((كيلا يستبد باستطاعته، ولا يغتر بكماله ، ولا يختال في مشيه،ولا يتهكم في لفظه ، ولا يتحكم على ربه ، ولا يعدو على بني جنسه))( ) . وهذا التفسير يقترب من القرآن الكريم في مواضع عدة . قال تعالى (وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) (الإسراء:) .

وقوله تعالى (وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ *وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (لقمان: -) .

فالإنسان مهما وصل إلى الكمال يبقى منطويا على عجز في القدرة والطبيعة والحق أن الاستعداد والتهيؤ قائمان بالإنسان التام فإذا ما أقدم على العمل والفعل بهمة وإرادة وقوة واستطاعة وذلك بانتظام هذه القوى فيه سمي قادرا ومرة مستطيعا ومرة قويا( ) .

والاستطاعة والقوة عواري* عند الإنسان تزداد وتنقص . لهذا لم يكن الإنسان قادرا على الاطلاق ولا عاجزا على الاطلاق ، إنما كان وعاءً لهما محمولا عليها . يقول التوحيدي في البصائر والذخائر ((ولو عَرِيَ من القدرة رأسا لما كُلِف ، ولو ملك الاستطاعة رأسا لما لجأ إلى الله ولا تضرع ، فهو بين قدرة من اجلها أُمِر ، وبين عجز من اجله اضطر وعذر ، ولو كان مستطيعا على الحقيقة لبطِرَ وأشِرَ ،وصَرَّفهم على الكمال والنقص ، وضربهم بالسعادة والنحس ، وألجأهم إلى النفس والحدس ، ليعرفوا بكمالهم كمال مُكمِّلهم ، ويعرفوا بنقصهم استئثار مُدبِّرهم ، ، فيعتمدوا عليه ، ولولا هذا التبرير المنطوي على الحكمة ، الجاري على نظام العقول السليمة ، لكانت قدرتهم تُنسيهم عجزهم))( ) .

وبناء على ذلك ، فإن هموم الناس تعد واحدة إلى حد ما . من هنا يمكن اعتبار رؤية التوحيدي رؤية فلسفية ، فنظريته الفلسفية تنطلق من بُعد (جامع universal) لطبيعة الإنسان وأسراره النفسية والاجتماعية. والواقع يشير إلى ان نظريته هذه مبنية على فهمه لكتاب الله وعلومه ، وكذلك من واقع مجتمعه وبيئته القريبة والبعيدة .

من هنا يُشّخص التوحيدي ملامح النواميس الكونية، من ان الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأودع فيه ((القدرة والعجز)) وهما صفتان متضادتان . قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس: -). فلو منح الله الإنسان القدرة ((المطلقة)) لبطِر وأشِرَ!! وبغى في الأرض !! لكنه خُلق والنقص فيه ليبقى ذليلا مضطرا إلى رحمته تعالى . والله جل وعلا يقول (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) (الشورى:). ويرى التوحيدي ان العاقل هو من يميز الطيب من الخبيث ، والحق من الباطل والهزل من الجد ((ويتحلى بالأحسن ويتخلى عن الأقبح))( ) . إذن فالتوحيدي يقف موقف الفيلسوف والمصلح الاجتماعي يدعو الإنسان إلى إصلاح نفسه بتعلم الأخلاق الحميدة ، والآداب اللطيفة ، والمعاشرة الجميلة ، الصحبة الصادقة ، والصداقة الصادقة .

يقول التوحيدي ((الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده ، ولا يستوي له ان يـأوي إلـى المقابر ، ولا بد له من اسباب بها يحيى ، وبأعمالها يعيش ، فبالضرورة ما يلزمه ان يعاشـر الناس ، ثم بالضرورة ما يصير له بهذه المعايشة ، بعضهم صديقا وبعضهم عدوا ، والآخـر منافقا وبعضهم نافعا ، وبعضهم ضارا ، ثم بالضرورة يجب عليه ان يقابل كل واحد منهم بما يكون له مرد من دين ، او عقل أو فتوة او نجدة ، ويستفيد هو من ذلك كله ما يكون خاصا به ، وعائدا بحسن العقبى عليه))( ) . الإنسان في فلسفة التوحيدي كائن متغير العادات والطبائع . فمن خلال معاينة التوحيدي ومقارنته لصنوف من المجتمعات ، فطن إلى كثير من الحقـائق تدلنا على عمق فهمه للناس ، وحسن إدراكه لطبائع البشر ، وقوة بصيرته في الحكـم علـى مسوغات الأفعال الإنسانية . فيرى ؛ ان الناس لا يثبتون على حال واحدة ، ولا على أخلاق واحدة ، أو عادات متشابهة .... .

ويقدم لنا التوحيدي صورة مقارنة لما جُبِل عليه الإنسان من طبيعة فاسدة اكتسبها من جهة جانبه المادي ذي الأصل الترابي الذي طغى على جانبه الروحي ذي المـصدر الإلهـي بسبب الظروف الحياتية ، مع صورة الإنسان الطائع لربه ، على ان تهذيب سـلوك الإنـسان وخلاصه من مفاسده ممكن وهو يتناسب طرديا مع طاعته لله وعبادته لـه ، فـيمكن لـه ان يسمو على جزئه الترابي فيزيل حجب الجسد حتى يجد معدنه الأول وجوهر وجوده( ) .

ولذلك يقول التوحيدي في مكان آخر ((وان الإنسان إذا احسّ بهذه الفضائل التي فـي نفسه ، والرذائل التي في جسمه وجب عليه ان يستكثر من الفضائل ليرتقي بها إلى درجـات الإلهيين)) ( ) .وبناء على ذلك يسوق التوحيدي حجة على بيان فلسفته بشأن إمكانيـة تنقيـة النفس من ادران الجسد إلى مصاف الإلهيين .

وإذا كان الإنسان مركّبا من هذين الجزأين وجب عليه ان يكون شغله بالجسد اقل من شغله بالنفس ((لان هذا باقٍ وذاك فان وذاك جواهر متضادة ، وهذا له وجود سرمدي ، وذاك لا وجود له إلا في الكون الذي لا ثبات له))( ) .

ومع كل الذي ذكرناه عن رؤية التوحيدي تجاه الإنسان إلا ان بعض الباحثين يقـدم صـورة مغايرة عن موقف التوحيدي من الإنسان . فيقول إبراهيم زكريا ؛ ان التوحيدي ((يفرط فـي تدقيق النظر في أفعال الناس ويبالغ في تركيز انتباهه على نقائصهم ومعائبهم ، حتى لقد انتهى به الأمر إلى إدانة الإنسان بوجه عام)) ( ) .

وقول التوحيدي في ((الامتاع والمؤانسة)) ((الإنسان بشر ، وبنيته متهافتة وطينته منتشرة ، وله عادة طالبة ، وحاجة هاتكة ، ونفس جموح ، وعين طموح ، وعقل طفيف ، ورأي ضعيف ....)) ( ) .

وعلى الاجمال فإن تساؤلات التوحيدي في غالب مؤلفاته - كما ذكرنا - تتحدث عن طبيعة الإنسان ونمط تفكيره ونظرته الذاتية إلى الاشياء وتقويمه الظواهر،لتكتسب هذه الأسئلة قيمة اجتماعية تاريخية،فضلا عن قيمتها النفسية( ).

ولما كانت بيئات الإنسان متنوعة وعناصرها متباينة . لذلك فمن الطبيعي ان تتنوع انماط تفكيره وأساليب حياته وعاداته وأعرافه .

ان تنوع عادات الناس وأعرافهم يعود لجملة عوامل فلكل قوم او شعب او جماعة في مكان وزمان ؛ عادات وأعراف وأزياء وعبارات وحركات وحُلي اعتادوا عليها فلا يغادرونها ، وعرّف التوحيدي الطبع الإنساني بأنه ((الجبلة التي خلق الإنسان عليها)) ( ) .

عند حديثه عن طبائع الإنسان يروي ابن قتيبة عن اهل الكتاب عن الله عز وجل ((إني حين خلقت آدم ركّبت جسده من اربعة اشياء ثم جعلتها وراثة في ولده تنمي في اجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة : رطب ويابس وسخن وبارد وذلك لأني خلقته من تراب وماء ثم جعلت فيه نفسا وروحا ، فيبوسة كل جسد من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح .....)) ( ) .

ولابن قتيبة (ت هــ) حديثا في الطبائع كتبه تحت عنوان ((كتاب الطبائع والأخلاق المذمومة)) ( ) ، مذيلا العنوان بعبارة ((تشابه الناس في الطبائع وذمّهم)) افتتح كتابه بأحاديث للنبي (ﷺ) وللصحابة (ﷺ) ، وشواهد شعرية ... جميعها تشير إلى استقرار الطبع عند الإنسان ورجوع الأخير إليه مهما تبدلت الظروف والأزمان .ولذلك ابتدأ ابن قتيبة كتابه بمقولة تنسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ) ((الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم)) ( ) .

ومن الشواهد الشعرية التي استشهد بها : ( ) .

وما مر يوم ارتجي فيه راحةً فاخبرهُ إلا بكيت على أمس

وشاهد آخر:

إذا كان الطباعُ طِباع سوء فليس بنافع أدب الأديبُ

وفي قول الشاعر:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ

وقول آخر:

كل امرئ راجع يوما لشيمته وان تخلَّق أخلاقا إلى حين

الخاتمة

خرج البحث الموسوم (خصائص الأمم والشعوب عند الحكماء والعلماءوالتعليق النقدي لأبي حيان التوحيدي تجاهها) بجملة من النتائج منها :- إن كل امة من الأمم تمتلك لونا من العادات والتقاليد ، أصبحت جزءا من ثقافتها وهويتها .

كما أن لكل امة عادات وتقاليد ، فإن لها خصائص فطرية تختص بها كل امة من غيرها.

(محور البحث) هي (المفاضلة الاجتماعية) Social differentiation والتي جاءت على صيغة سؤال وجهه احد وزراء الدولة السامانية في المشرق الإسلامي إلى الإمام والفيلسوف التوحيدي ، حول أي الأمم أفضل؟؟ وبناءاً على السؤال السابق ؛ وظف التوحيدي سؤال الوزير ليخوض في موضوع في غاية الأهمية وهو ما يعرف بمفهومنا المعاصر (علم الاثنوغرافيا) وهو احد فروع (علم الانثروبولوجيا) والتي تعني (دراسة علم الإنسان من حيث هو كائن طبيعي واجتماعي) ، ولعل العلم الأخير قريب من مصطلح فلكلور Flok-lore والتي تعني دراسة الثقافة الشعبية.

مقياس المفاضلة عند التوحيدي هو بقدر ما يقدمه الفرد لخدمة المجتمع بعد تقوى الله في كل شيء وهو مبدأ لا شك أنه مستمد من الشرع الإسلامي (القرآن الكريم والسنة النبوية) .

يقر التوحيدي بتأثير البيئة على سلوك الإنسان ، وانعكاساته عليه ، وهو مبدأ اعتمده العالم العربي ابن خلدون بعد قرون في أعمق بحث علمي عرفته البشرية هو (مقدمته) ذائعة الصيت ، والتي احتوت على مشروعه البحثي في تأسيس علم الاجتماع (العمران) .

إن تهذيب سلوك الانسان يتناسب طرديا مع طاعته لربه ، وبذلك يسمو الانسان على جزئه (الترابي) عن طريق جزئه (الروحي).

الهوامش

( ) المدخل إلى الانثربولوجيا ، د. شاكر مصطفى سليم ، مطبعة العاني ، بغداد ، ، ص .

( ) المدخل إلى الانثروبولوجيا ، د. مجيد حميد عارف ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة بغداد ، ، ص .

( ) ثقافة الارهاب والعولمة ، حسب الله يحيى ، طبع دار الثوار الثقافية العامة ، بغداد ، ط م .

( ) جان جينيه،((يوميات لص)) ، ترجمة احمد عمر شاهين ، ، دار شرقيات ، القاهرة ، ط .

( ) المدخل إلى الانثروبولوجية ، شاكر مصطفى ، ص .

( ) د. حيدر سعيد ، من الفلكلور إلى الثقافة الشعبية ، مجلة التراث الشعبي ، العدد لسنة م ، ن.م ، ص .

( ) ينظر أيضاً ن.م ، ص

( ) الفلكلور.. ما هو؟ فوزي العنتيل ، طبع دار المعارف ، مصر ، ، القاهرة ، ص .

( ) علم الفلكلور ، الكسندر أيج كراب Alexander H. Krappe ، لطفي الخوري ، مجلة التراث الشعبي ، عدد لسنة ، ص - .

( ) فوزي العنتيل ، بين الفلكلور والثقافة الشعبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ص .

( ) حيدر سعيد ، من الفلكلور إلى الثقافة الشعبية ، ص .

( ) حيدر سعيد ، ن.م ، ص .

( ) مقدمة في الانثروبولوجيا الاجتماعية ، لويس مير ، ترجمة د. شاكر مصطفى سليم ، طبع دار الشؤون الثقافية بغداد ، ص .

( ) مقدمة في الانثروبولوجيا ص .

( ) الامتاع ، ج ،ص .

( ) شعوب وثقافات ، ص .

( ) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المسمى بمقدمة ابن خلدون ص ص - .

( ) ن.م، ص .

( ) ص .

( ) ن.م . .

( ) ن.م . .

( ) ن.م ،ص .

( ) ن.م ،ص .

( ) ن.م ،ص .

( ) ن.م ،ص ص - .

( ) الامتاع، .

( ) ن.م ، .

( ) رسائل التوحيدي ، رسالة في العلوم ، .

( ) ماجدة محناية ، مفهوم الإنسان عند ابن حيان التوحيدي ، مجلة التراث العربي ، العدد ، السنة يصدرها اتحاد الكتاب العرب ، حلب ، ، الانترنيت .

* العارية : هي ما تستعيره من غيرك وليست ملك لك . ابن منظور ، لسان العرب.

( ) / .

( ) البصائر / .

( ) الصداقة والصديق ، تحقيق الكيلاني ، دمشق ، ، ص .

( ) محفاية ، مجلة التراث العربي ، العدد ، دمشق ، انترنيت Internet .

( ) الهوامل والشوامل ، ص .

( ) الهوامل ، .

( ) رسائل ابي حيان التوحيدي ، ص .

( ) ج/ .

( ) الظمأ ، د. فائز طه عمر ، ص .

( ) الجرجاني ، التعريفات ، ص .

( ) عيون الاخبار ، ج .

( ) ينظر : عيون الاخبار ج ، ص ص - ، طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت .

( ) عيون الاخبار (كتاب الطبائع) ، ص .

( ) عيون الأخبار ، ج - .